صفحة مطوية من تاريخ لبنان

الشيخ عيسى حماده المتوالي

نشرها الاب بولس مسعد الحلبي اللبناني

وقف الاب بولس مسعد ، الراهب الماروني الحلبي اللبناني ، في دير رهبنته في روما على اوراق مبعثرة . فلمّ شتاتها ، ورتبها ، ودقق في درسها . واذا هي صفحات من كتاب ضاع في التاريخ اللبناني عامة ، وتاريخ الرهبنة خاصة ، فسه مؤلفه مجلدين بقي من ثانيهما نحو مائة صفحة تتناول حوادث السنوات ١٧٣٦ و١٧٣٧ و١٧٣٨ غير كاملة . ولم يبقَ من المجلد الاول الا خمس عشرة صفحة ، منها هذا الفصل الخير في اخبار الشيخ عيسى حماده المتوالي . اما مؤلف الكتاب فهو ما يبحث فيه الناشر ، بعد وصفه الموجز لاوراق المخطوطة . قال :

تمهيد

طول هذه الصفحات ٢٧ سنتيمترًا بعرض ١٩ ، وفيها يتتبع الكاتب تاريخ السنين ، على جاري عادة المؤرخين العرب ، فيصف ما جرى في كل عام نقلًا عن سجلات الرهبانية ، ويضيف اليها معلومات عديدة اخذها عن الاباتي توما اللبودي وغيره من المعاصرين الذين ساهموا في اهم حوادث التاريخ اللبناني في القرن الثامن عشر ، وكثيرًا ما يؤيد كلامه بكتابات الرؤساء الرسمية : من بطاركة ، ومطارنة ، ومشايخ ، تلك الكتابات التي تميط اللثام عن عدة امور اعتراها اللبس بسبب تقادم الاعوام .

كذلك لا يأنف المؤرخ ، رحمه الله ، من تسطير تلك الحوادث والاخبار التي تكشف عن الضعف البشري وسوء التصرف في بعض البطاركة ، الاساقفة ، والرؤساء ، والاعيان ، والرهبان . انا نعيب عليه شيئاً واحدًا وهو اسهابه في تبيان بعض اشياء لا تهمّ القارئ بتاتًا .

* * *

اما مدوّن هذا التاريخ فهما ، بحسب رأينا ، اثنان : الاب توما اللبودي ، والاب اغوسطين زنده الحلبيان ، الاول جمع الوثائق وقصّ الاخبار ، والثاني كتب كما سنرى . ونستند رأينا هذا الى ما يأتي :

١ً ــ رسالة بعث بها الاب عمانوئيل عبد الاحد الحلبي ، رئيس دير رومية الى الاب العام ، جاء فيها ما يلي :

« ان نائبكم الاب توما اللبودي من زمان متشوّق لكي يعمل تاريخ للرهبنة ، وما امكن ان يحصل على هذا فيما مضى ، والان وجد الاب اوغسطين زنده . فابتدأ في التاريخ » .

ثم يطلب الى الرئيس العامّ ان يأمر الاخ بطرس الساعاتي ، وكيل مكتبة الرهبانية العامة في دير الاويزة ، بان يرسل الى رومية بالوثائق والسجلات التي تمتّ بصلة الى تاريخ الرهبانية ، حتى ينجز هذا العمل الشاق . وبما انه يوجد قسم لا يستهان به من الوثائق المذكورة في دير رومية ، نتج ان صاحب هذا الكتاب هما الابوان المشار اليهما آنفاً .

٢ً ــ تكرار هذه العبارة : « كما روى او كما اخبرنا الاب توما اللبودي » . ثم ان الاوراق مكتوبة بخط الاب زنده الذي اعرفه تمام المعرفة .

٣ً ــ رسالة بعث بها الاب توما العاقل ، رئيس الرهبان الحلبيين العام الى الاب عمانوئيل عبد الاحد ، وهي بدون تاريخ ، ولعلها كتبت بين سنة ١٧٧٣ و١٧٧٧ جاء فيها ما يلي :

« . . . لم تذكروا انكم تسلمتم منه [الاب زنده] التواريخ التي عملها . وهذا الزم من كل شيء ، لا بد يكون كاتب في تواريخه الثلب في حق الرهبان الذين اصلهم من غير طائفة كما كتب في مكاتيبه للرهبان . القصد ان كان اخذتوهم احتفظوا عليهم وارساوهم لنا عن يد امين ، وانكان للان لم تأخذوهم حالاً خذوهم منه من كل بد . . . »[1] .

هذا القول لا يثبت فقط كون الاب زنده هو واضع هذا الكتاب ، بل ان القسم الاكبر من مؤلفه هذا استولى عليه الرؤساء لكثرة الشتائم والمساوئ التي

١) عن اوراق دير رومية : سجل العلامة الفرداحي

وجهها والصقها بالفئة الحلبية ، وبالرهبان الذين اصلهم من غير طائفة . . .

اجل ان هذا الاب كان من حلب ، وكان في اول الأمر من اشد العاملين بجانب مواطنيه الحلبيين ، الا انه لما لم يسندوا اليه الوظائف التي كان يأملها في الرهبانية ، انقلب عليهم وانحاز الى الفئة البلدية بعد الحصول على الاذن من المجمع المقدس .

وقد قرأنا في سجلّات دير رومية عدة كتابات بخصوص الاب زنده ، وكلها تعلن انه كان متقلباً ، متمنتاً ، لا يلذّ له عيش ولا تروقه حالة . ومن بعد مجيئه من رومة حوالى سنة ١٧٢٧ ولم نعد نعرف عنه شيئاً ، رحمه الله .

وبعد فهذا هو الفصل في تاريخ الشيخ عيسى حماده . وقد اضفنا اليه العناوين:

صفحة

من تاريخ الشيخ عيسى حماده المتوالي

[ص ١–٥]

شغفه بالمال

اعلم انه بعد ان دخل المطران جرجس بنيمين الرهبنة اليسوعية ١٧١٢ اوقف لرهبانه مدرسة مار يوسف زغرتا الذي كان هو عمرها . وكان له الف غرش موضوعة عند الخواجا كين البازركان الفرنساوي بمدينة طرابلس فجعلها للرهبان اللبنانيين . وارسل الى الاب العام مكتوب ليتسلم الدراهم المذكورة من الخواجا كين . وذكر له في المكتوب عينه بعض قضايا سرية . فلم يشأ الاب العام ان يبقها في المكتوب العتيد ان يعرضه على الخواجا ليتسلموا الدراهم بل قص من المكتوب المكان المجرة فيه القضايا السرية واعطاه الى القس توما[1] ينزل يعرضه على الخواجه ويتسلم المبلغ . فلما عرضه القس توما لم يقنع فيه الخواجا واعتذر انه مقدوض وغير شرعي . وصار ذلك بتدبير الهي خفي . فالتزموا الرهبان ان

١) يريد به القس توما اللبودي

مثال من التاريخ اللبناني المحفوظ في دير الرهبانية الحلبية بروما ص ٧٢

يراجعوا المطران جرجس بالامر . عند ذلك خصصها المطران لليسوعية ايضاً مثل المدرسة .

ولان اولاد الحلال لا تدع شيء يخفى اتصل الخبر الى عيسى حماده ان المطران جرجس له دراهم والخوري يوسف خوري عينطورين يعرف بها . فالشيخ عيسى الذي كان في خاطره من بلصة المطران جرجس قبل ان يسافر وما تحكم منه لما سمع بهذا الخبر وكان وقتها الخوري يوسف مريض صار ينتظر قيامه ليمسكه ويأخذ الثأر منه عن الاول اي عن سعيه في حكم الامير احمد بلاد الجبة وعن الثاني وهو اخفاؤه دراهم المطران جرجس عنده . لكن الموت حمى الخوري يوسف من يدي عيسى المذكور .

فلما مات الخوري ارسل الشيخ مسك اخو الخوري وبناته واولاده ووضعهم تحت الترسيم ليقروا له بالدراهم . ولانهم لم يعرفوا بالدراهم قالوا للشيخ ان كان المطران له دراهم تكون في زغرتا لان كنيسة زغرتا تبعيهم وهو كان مطرانها . فارسل الشيخ مسك المطران جبرائيل ابو الولاد وامر ان يأتوه بجوايج كنيسة زغرتا . وكان للكنيسة جملة حوايج بدلات وغفرارات واشياء ثمينة غالبها موقوفة لها من مدينة حلب . فاتوه بالمطران والحوايج وصار يدقق بالفحص عن الدراهم . واخيراً صح من رمي كلمة ان الرهبان بيكونوا عارفين بالدراهم . فارسل الشيخ دعى القس توما . ولما وصل وسأله وراى القس توما اخو الخوري يوسف واولاده والمطران جبرائيل ممسوكين مع حوايج كنيسة زغرتا بسبب الدراهم قال للشيخ دراهم المطران مودوعة عند الخواجا كين الفرنجي في طرابلس فرام الشيخ ان يرسل البعض من العناطرة ليأتوا بالدراهم . ويرسم على القس توما ايضاً ليشفي بنوع ما ما بخاطره منه عن السعي القديم في حكم البلاد او اقله اذا لم تحصل الدراهم من الفرنجي فيبلص الممسوكين ومن جملتهم القس توما . لكن العناطرة لم يخبروا بغير القس توما وقالوا للشيخ من غير ما يكون القس توما معنا ما نقدر نعمل شيء بل اذا كان فيتكلم هو مع الخواجا والقنصل ويسعى معنا . فوفى الشيخ وارسله معهم .

فنزلوا الى طرابلس وبدوا يسعوا في خلاص الدراهم . ولانها صارت لليسوعية

فصاروا يداعوا ليحموها لهم . وفي هذه الفرقة كان وصل الخبر الى المشايخ الخوازنة ان عيسى مسك المطران جبرائيل[1] وطالب منه دراهم المطران يوحنا فصعب عليهم وتوجه منهم كم شيخ ليأتوا يخلصوا المطران فوصلوا الى حنطورا حيث كان المطران والمسوكين وارسلوا طلبوا الشيخ عيسى الى عندهم وقد كان في زغرتا .

ولنرجع لدعوة الدراهم . بعد ان جمع القنصل جمعية من الفرنج والمرسلين وانعرض الضرر والخسارة العتيدة ان [تحدث] للمطران والمسوكين بسبب هذه الدراهم حكموا المرسلين والقنصل ان الدراهم تعطى فداء عن المذكورين واليسوعية ليس هم محتاجين لشي مثل هذا . فسلم الخواجا كين الدراهم بيد القس توما والعناطرة فقبضوها وطلعوا . وفي طلوعهم تلاقوا مع الشيخ عيسى عند عين داريا كان ماضي يواجه المشايخ الخوازنة فقبض الدراهم واوصاهم بالا يخبروا احد بشيء . وفي وصوله ومواجهته المشايخ والعتاب بينهم اطلق المطران والمسوكين كانه بخشهم للمشايخ .

واخذ من حوايج زغرتا كافة الاشياء المكلفة والثمينة وبيّن القليل منها وقال لاهل زغرتا في حضور المشايخ هذه حوائج كنيستكم كلها . قالوله تعم . خوفاً من شره فيما بعد وارتد كل احد الى مكانه .

وكان قصد الشيخ ان يزوج ابنه حيدر فابتدأ يفصل له بدلات وجهاز من كنيسة زغرتا تلك الثمينة .

وهذا هو التدبير الالهي الخفي في عدم تسليم الخواجا كين الدراهم للرهبنة لانه لو كانت تسلمتها الرهبنة وظهر خبرها فيما بعد لما كان يكفي الرهبنة مقدارها فوقها خسارة لان الشيخ ما كان يصدق ان هذا هو المبلغ فقط بل كان يتذمم ويطلب ولاسيما لان الضغينة كانت في خاطره من القس توما .

---

١) هو المطران جبرائيل مبارك الريفوني . رسمه اخوه المطران يوسف مبارك لما اقيم بطريركاً بعد حط البطريرك يعقوب عواد في ٢٧ ك ٢ سنة ١٧١٠ . وقد كان البطريرك الجديد رجلاً بسيطاً ، اصله راهب من دير سيدة ريفون ، ومن قرية غوسطا .

مصرعه

في هذه السنة [١٧١٧] صارت نهاية الشيخ عيسى حماده. وكان لهذا اسباب الهية وبشرية .

فالاسباب الالهية : اولًا لانه كان اخذ خرايج كنيسة سيدة زغرتا وتصرف بها في امور بشرية. والحال ان اختلاس الوقف هو من اعظم دلائل خراب الديار وحسم الاعمار . وقد اظهر اختلاس الوقف في المذكور اية قبل هذه وهي لما اخذ دراهم البطرك يعقوب التي كانت مودوعة في الرهبنة وزوج بها ابنه ابراهيم بام ملحم بنت الشيخ اسماعيل. فهذا ابراهيم جاه ولد اكتع . واخيرًا ابراهيم المذكور قتل بعد مدة عند العرب لما كان مع ابوه عيسى

ثانيًا لانه قصد ان يبلص جملة انفار من اهل بلاده وارسل براسيل ليأتي بالبطرك يعقوب من كسروان الى بلاد الجبة بالمخاتلة لكي يصليه مع اهل البلاد ويرميهم في بعضهم ويبلص الجميع لانه كان مريدًا ان يزوج ابنه. وكأنه صار مستخزب.

اما الاسباب البشرية فاولًا ان تلك السنة كان دفع الى باشا طرابلوس جوخ في الميري وخسر الباشا فيه كثيرًا. وكان دفع الجوخ عن يد القس توما الذي تسلمه من الفرنج ودفعه عن الشيخ. وصار الباشا يتهدد على القس توما ويترصد وقوعه ليقاصره.

ثانيًا ان عيسى المذكور كان بقصده يحكم جومة بلاد عكار التي كانت مختصة غالبًا بحكم شديد ابن ناصر . وكان يرسل ابن حسين ديب يخرب في تلك الناحية حتى يعجز الدولة ويحكمها كما كان حكمها سابقًا وشديد الناصر هو كان الحاكم في بلاد عكار . ومن هنا كان شديد الناصر يترقب الزمان ليسعى ويأخذه بالامان ويكاتبه على حكم بلاد عكار ليكون بين اثنينهم معًا وانه يسعى عند الباشا في حكم البلاد لاثنينهم . فاركن عيسى الى شديد لانه لم يكن بينهم غلث سابق ولا عداوة . وفي زمان هذه المكاتبات التي جرت بينهم كان عيسى في دير عنطوره واستمر هناك ايام . ولا زال شديد الناصر يكاتبه ويرقده بالامان الى ان ربطها مع الباشا وعينوا عسكر سري وكان في قلب الباشا آه من عيسى وحلف الى شديد انه ان اتاه براسه يعطيه مهما اراد .

فاخذ شديد معه من امرا الكراد ابو الامير علي وكان بين امرا الكراد وبيت حمادة عداوة دم. ثم اخذ معه واحد من بيت رعد من الضنية وكم بيرق لاوند. وتجمعوا نحو مايتي وخمسين نفر ما بين خيالة وزلم وخرجوا من طرابلوس في الليل ومضوا في دروب غير مسلوكة .

وكان عيسى بخنطوره ومعه حيدر ابنه وجملة متاولة من اربعين خمسين نفر . فهجمت الكبسة عليهم في الليل وقتلوا عيسى وابنه حيدر وواحد يقال له الحاج درغام وغيرهم من ارفاق عيسى وقصوا روسهم وعادوا راجعين .

ولو يتأنوا لكانوا قتلوا غيرهم كثيرين من المتاولة . لكن القصد كان في عيسى . ومسكوا بلال العبد الذي كان عند عيسى واثنين متاولة ورجل ماروني يدعى سميا من ضيعة قنات كان يستخدمه عيسى في مراسلات ومشاورة . وصارت الكبسة والقتل من غير ان يعرف احد من اهل البلاد بشي . وبهذا الحال جازت والدة الاله من اختلس حوائج كنيستها وخلصت البطريرك واهل البلاد من شره وبلصه . وصار ذلك نهار الاثنين في اول اذار هذه السنة [١٧١٧] .

اما الذين مسكوهم لما وصار الى المدينة قتلوهم جميعهم . وجملة الذين قتلوا من ارفاق عيسى ما عداه هو وابنه والحج درغام اثني عشر واحد وارسلوا روسهم الى اسلامبول من غير ان يقتل احد من ارفاق شديد ام يتجرح . وفي قتلة عيسى كان القس توما غائباً في كسروان كان ارسله عيسى المذكور بمكاتيب الى البطرك يعقوب ليرجع الى البلاد . فبعد هذه المكاتيب للبطرك بشرة ايام قتل عيسى لان اعيان طرابلس منعوا الباشا عن الركبة بنوع التسليق وطلع منهم كم واحد واجتمعوا مع اسماعيل وغيره من بيت حماده وعاودوا امند الباشا وطيبوا خاطره عليهم . وكفلهم الامير حيدر امير الدروز[1] وحكموا بلادهم كجاري عادتهم . وصار رأس بيت حماده الشيخ اسماعيل فضمن باسمه بلاد جبيل وبلاد البترون والجبة ايضاً . وبعد ان ضمن البلاد خاطب السيد البطريرك حتى يرجع لقنوبين وعمل له شروط ملائمة بحضور اهل الجبة فارضي يرجع بل كان مقيماً بدير مار شليطا . وكان موقف وكيل في قنوبين ابن اخوه الشدياق سليمان .

١) هو الامير حيدر ثاني الامراء الشهابيين (١٧٠٦-١٧٣٠)

وصار خوف في الجبه من الدولة لئلا تركب وتنهب البلاد . وصار طرح صوت من الشيخ اسماعيل حماده . وجمع عسكر وكان قاصداً يأتي الجبة يأخذ نساء عيسى خوفاً عليهم من الدولة . وفي هذا الحال راح الخبر الى القس توما بقتل عيسى وانطلب الى الجبة ليلاحظ ويدبر الديورة خوفاً لئلا يصير تخريب في البلاد . وكان يومها الاب العام[1] في لويزه بكسروان . والمطران عبدالله هناك . فحثوا القس توما على التوجه سرعة . وفي مجيئه فات على جبيل ورأى اسماعيل وباقي المشايخ مجموعين . وبعد السلام استمنوه ان يأخذ لهم مكاتيب معه الى طرابلوس لبعض من الاكابر استخبار عن كيفية الاحوال ونية الباشا فالتزم من المحاياه ولاجل خاطرهم ايضاً ان ياخذ المكاتيب . ولان الباشا وكاخيته كانا متغلتين عليه لسبب الجوخ كما مر ذكره فما قدر يدخل مجهراً مدينة طرابلوس بل التزم غير ثيابه ودخل بشكل لاوند كسرواني الى ان قضى لهم الغرض وارسل لهم جواب المكاتيب وطلع الى الجبة . وفي هذه الواقعة ما صار شي من الضرر على البلاد ولا وكبة دولة ولا غيره .

مآل بيت عيسى بعد قتله

ولما قتل عيسى كان باقي له في الحياة ثلاثة اولاد وهم موسى واسماعيل وحسين . وقبل ان تقتل كان قتل له ولد اخر اسمه براهيم وهو الاكبر وكان تزوجه ام ملحم بنت الشيخ اسماعيل هذا الذي ازوجه من دراهم البطرك يعقوب التي ودعت في الرهبنة واخذها هو فداركه الانتقام الالهي وجاه ولد اكتع ثم بعد مدة قتل عند العرب حين كان مع ابوه عيسى كما مر . وفي قتل عيسى هنا قتل معه ابنه الثاني حيدر الذي كان قاصداً ان يزوجه ام ملحم امرأة ابنه الاول وعمل له الجهاز من حوائج كنيسة سيدة زغرتا . فقتلته ام الله الاب وابنه لاجل اختلاس حوايج كنيستها كما ذكرنا . فبقي له ثلاث اولاد بعد موته وهم الذين ذكرناهم .

ثم بعد قتل عيسى وقع اختلاف بين اولاده واولاد اخوته من خصوص قسمة البلاد . لان عيسى كان له اخين فخلفوا ثلاث اولاد واسماءهم ابو قاسم

---

١) كان وقتئذ رئيساً عاماً المطران جرمانوس فرحات

وابو حسين صالح وحسن ابو ناصيف . فهولا الثلاثة وقع الاختلاف بينهم وبين اولاد عيسى موسي واسماعيل وحسين من خصوص قسمة البلاد كما كان وقع هذا الخلف بينهم وبين عم عيسى سابقاً . فاولاد عيسى كاتبوا الشيخ اسماعيل لكي يزوج بنته ام ملحم التي كان اخوهم حيدر قاصداً الزواج بها الى الواحد منهم وهو موسي لكونه الكبير فازوجها له . وحضر الشيخ اسماعيل وقسم البلاد مناصفة بين اولاد عيسى واولاد عمهم . وبالحق كان يطلع البلاد ثلاثة لان عيسى واخوته كانوا ثلاثة وكل ما هو يخص الثلاثة . لكن الشيخ اسماعيل اغرض مع اولاد عيسى وقسم البلاد على الرؤوس ولان اولاد عيسى ثلاثة واولاد عمومتهم ثلاثة طلع البلاد مناصفة .

فطلعت حصة اولاد عيسى بشري حصرون بزعون قنوبين بلوزا ايطو كرم سده راس كيفا كفرصقاب اجبع سبعل والمزارع التي كانت بيدهم قبل القسمة استدامت معهم . وصار موسى المتولي لانه كبير اخوته واخوته تحت يده .

وهذا موسي هو الذي مسك الشدياقيـة في بشري لما ان [افترى] عليها البعض من المتاولة المبغضين انها مخبية مال الشدياق زوجها وعذبها بقساوة حتى ماتت تحت العذاب . ولما يتحركوا البشرانية الى حمايتها لانهم كانوا منقسمين في بعضهم والانقسام كان واقع بين بيت رحمه وبيت كيروز بسبب مشيخة الضيعة ومع ان الشدياق زوجها من بيت رحمه وهي من الكوارزه فمع ذلك ما احد اعتنى في خلاصها وصار هذا قلة خاصية من البشرانيه ما سُمع بمثلها اصلاً .

اما حصة اولاد عمومتهم وهي نصف البـلاد الاخر فمن وقتهم تقاسموه مثالثة فطلعت حصة ابو ناصيف اهدن . وحصة ابو قاسم حدشيت بقاع كفره قزحيا حوقا جرد الحوت . وحصة ابو حسين صالح عينطورين تولا حماطورا الحدث قنات . وكل من كان بيده مزارع دامت معه . وفي هذه القسمة انفرج البلاد لان كل حاكم صار يداري فلاحينه وعهدته وصار قتل عيسى سبباً لهذا الفرج . . .

واخيراً مات اسماعيل ابن عيسى وبقي اثنان منهم . فقسموا حصتهم مناصفة فخص موسي حصرون كفرصقاب كرم سده راس كيفا بزعون اجبع . وخص حسين بشري قنوبين بارزا ايطو سبعل . ولم يزالوا حتى الان .